

تقويم الشام

تعريف الشام للأقدمين

الشام والشام والشام والشام هو اسم هذا القطر العزيز على ما عرفتة العرب، وهو يتناول عامة الأقاليم الداخلة اليوم في فلسطين وسورية بحسب الاصطلاح الحديث. وسورية اسم غلب إطلاقه على القطر الشامي على عهد الإسكندر مقتضبا مع تخفيفه من اسم آشوري لغلبة الآشوريين عليه والسين والشين تتعاوران في اللغات السامية. قال البكري: سُورية بضم أوله وكسر الراء المهملة وتخفيف الياء أخت الواو وفتحها اسم للشام. وقيل: إن سبب تسميته بسورية نسبة لصور ثغر الشام القديم ومخرج الصاد والسين واحد. وقال آخرون: إن اليونان لما فتحوا الشام رأوا الآشوريين يتولون أمره فسموه آشورية. قال المسعودي: سورية هي الشام والجزيرة وكان الروم يسمون الصقع الذي سكانه المسلمون في عهده ٣٤٥هـ من الشام والعراق سوريا، والفرس كانوا يسمون العراق والجزيرة والشام سورستان إضافة إلى السريانيين الذين هم الكلدانيون وتسميهم العرب النبط.

ويقال: إن فلسطين^(١) سميت بفلسطين بن سام أو بفلسطين بن كلثوم، أو بفليستين بن كسلوخيم من بني يافث بن نوح ثم عربت فليشيين.

(١) قد نقل عبارة المؤلفين برمتها أو نحذف منها جملا، أو ألفاظا، بحسب ما يقتضيه تأليف الكلام وبسطه أو اقتضابه ولا نعزو عبارات المؤرخين التي نقلها غير واحد منهم

وجوزوا في اسم الشام التذكير والتأنيث والمشهور التذكير. وللغويين والجغرافيين في سبب تسميته شاما آراء مختلفة فقيل: سمي لتشاؤم بني كنعان إليه وقيل: بل سمي بسام بن نوح لأنه نزل به واسمه بالسريانية شام بشين معجمة. وقال بعضهم: إن سام بن نوح لم يدخل

الشام قط وقيل لأن أرضه أي أرض الشام مختلفة الألوان بالحمرة والسواد والبياض فسمي شاما لذلك، كما يسمى الخال في بدن الإنسان شامة، وقيل سمي شاما لأنه عن شمال الكعبة. والشام لغة في الشمال، وقيل سميت الشام شاما لكثرة قراها وتداني بعضها من بعض فشبهت بالشامات وجوزوا فيه وجهين؛ أحدهما أن يكون من اليد الشؤمي وهي اليسرى، والثاني أن يكون فعلا من الشؤم.

معنى الشام وجمعه

واختصرت العرب من شامين الشام وغلب على الصقع كله ياقوت وهذا مثل فلسطين وقنسرين ونصيبين وحوارين وهو كثير في نواحي الشام. وذكروا أن معنى الشام الطيب، ويقال للشام اللماعة واللماعة بالركبان تلمع بهم أي تدعوهم إليها وتطيبهم، وقد تجمع الشام على شامات وتسمى الشام بذلك، ومن الناس من لا يجعله إلا شاما واحدا، ومنهم من يجعله شامات فيجعل بلاد فلسطين والأرض المقدسة إلى حد الأردن شاما، ويقولون: الشام الأعلى ويجعل دمشق وأرجاءها من الأردن إلى الجبال المعروفة بالطوال شاما ويجعل سورية وهي حمص وما ضمت إلى رحبة مالك شاما، ويجعلون حماة وشيزر من مضافاتها ويجعل قنسرين من إقليمها وحلب مما يدخل في هذا الحد إلى جبال الروم

على الأغلب ويكون العزو لما تفرد به مؤرخ أو كان له ابتكارًا دون غيره من معاصريه وسابقيه.

والعواصم والثغور. فأما عكا وطرابلس وكل ما هو على ساحل البحر وكل ما قابل شيء منه شيئا من الشامات فيحسب منه.

وإطلاق الشام على دمشق من باب إطلاق العام على الخاص والعرب -ناليوني- كثيرا ما يسمون المدن القواعد بأسماء أقاليمها فكانوا يقولون بلا فرق دمشق أو الشام، الفسطاط أو القاهرة أو مصر، شام أو حضرموت، صحار أو عُمان، الأندلس بدلا من قرطبة، صقلية عبارة عن بلرم.

حد الشام قديما

وحد الشام من الغرب البحر المتوسط أو بحر الروم أو بحر الملح أو بحر الشام، ومن الشرق البادية من أيلة إلى الفرات. وأيلة مدينة قديمة على البحر الأحمر أو القلزم وهي على مقربة من العقبة اليوم. ثم يذهب الحد من الفرات إلى حد الروم أو آسيا الصغرى وشمالا إلى الروم وجنوبا حد مصر وتيه بني إسرائيل. وأوصلوا الحد من الغرب إلى طرسوس قرب أذنة إلى رفح في أول الجفار بين مصر والشام. وأوسع من هذا التعريف أنه يحيط بالشام من جهة الجنوب حد يمتد من رفح إلى تيه بني إسرائيل إلى ما بين الشوبك وأيلة إلى البلقاء، ويحيط به من جهة الشرق حد يمتد من البلقاء إلى مشاريق صرخد آخذا على أطراف الغوطة إلى سلمية إلى مشاريق حلب إلى بالس. ويحيط به من جهة الشمال حد يمتد من بالس مع الفرات إلى قلعة نجم إلى البيرة إلى قلعة الروم إلى سميساط إلى حصن منصور إلى بهنسي إلى مرعش إلى سيس إلى طرسوس. وهذا الحد للعرب قال به كاتب جلبي في القرن الحادي عشر.

حقيقة حد الشام

وبموجب الاتفاق الفرنسي التركي الأخير جعلت الحدود في قرية قطمة على طريق السكة البغدادية على أربعين كيلو مترا من حلب. ودخلت كليس في حدود الروم وليس هذا هو الحد الجغرافي الطبيعي للشام من الشمال. بل حد الشام ينتهي بسفوح جبال طوروس المعروفة بالدروب عند العرب آخذًا إلى ما وراء خليج الإسكندرونة لجهة أرض الروم وكان جبل السياح -بفتح السين وتشديد الياء- حدا بين الشام والروم ولا نعرف هذا الجبل بهذا الاسم اليوم. ويقول الإدريسي: ومن السويدية إلى جبل رأس الخنزير عشرون ميلا وعلى هذا الجبل دير كبير وهو أول بلاد الأرمن وآخر بلاد الشام. فما كان من جهة الشام على ضفة الفرات فهو

شام، وما كان على الضفة الأخرى من الشرق فهو عراق. فصين مثلا في الشام وقلعة جعبر في الجزيرة الفراتية وبينهما مقدار فرسخ أو أقل وتدخل بالس أي مسكنة بالشام لأنها من غرب الفرات وتدخل البيرة بيره جك في الجزيرة لأنها على الشق الآخر من الفرات. وما كان من دير الزور على الفرات إلى جهة الشام فهو من الشام، وما كان على الشاطئ الآخر إلى الشرق فهو من العراق. وكذلك يقال في الرقة. وتدخل دومة الجندل المعروفة اليوم بالجوف في الجنوب في جملة هذا القطر. كما أن أيلة هي آخر الحجاز وأول الشام. فالعريش أو رفح أو الزعقة هي حد الشام الجنوبي الغربي. ومعان نصفها للشام ونصفها للحجاز، فيقال: معان الشامية ومعان الحجازية.

حدوده مع مصر

وقد اتفقت الحكومتان العثمانية والمصرية سنة ١٣٢٤هـ - ١٩٠٦م على تعيين الحد بين مصر والشام من رأس طابا على الساحل الغربي لخليج العقبة ممتدا إلى قمة جبل فورت مارا على رءوس جبال طابا الشرقية المطلة على وادي طابا، ثم من قمة جبل فورت يتجه إلى الخط الفاصل إلى نقطة المفروق على قمة جبل فتحي حيث ملتقى طريق غزة إلى العقبة بطريق نخل إلى العقبة. ومن هذه النقطة إلى التل الذي إلى الشرق من مكان ماء يعرف بشميلة الراداي والمطلّة على الشميلة، بحيث تبقى الشميلة غربي الخط. ومن هناك إلى قمة رأس الراداي ثم إلى رأس جبل الصفرة، ومنه إلى رأس القمة الشرقية بجبل قم قف ثم إلى سويلة شمالي الشميلة، ومنها إلى غرب الشمال الغربي من سماوة ومنها إلى قمة التل الواقع إلى غرب الشمال الغربي من بئر المغارة في الفرع الشمالي من وادي مايين، ومنها إلى غربي جبل المقرة فالى رأس العين إلى نقطة على جبل أم حواويط إلى منتصف المسافة بين عمودين قائمين في الجنوب الغربي من بئر رفح، ومنها إلى

نقطة على التلال الرملية في اتجاه ٢٨ درجة أي ٨٠ درجة إلى الغرب وعلى مسافة ٤٢٠ مترا في خط مستقيم من العمودين المذكورين ثم يمتد الخط مستقيما من هذه النقطة باتجاه ٣٣.٤ درجة من الشمال المغنطيسي أعني ٢٦ درجة إلى الغرب إلى شاطئ البحر المتوسط مارا بتل خرائب على ساحل البحر الأحمر. وتقرر في أيلول ١٩٢٠ أن تكون حدود حلب شمالا التخوم الشمالية للواء الإسكندرونة والتخوم الشمالية للمنطقة الغربية القديمة آخر نقطة منها تلتقي بالخط الحديدي شرقي محطة هملمن، ثم خط الحديد وهو داخل التخوم حتى تل أبيض، ثم خط يجمع بين تل

أبيض والخابور شرقا ونهر الخابور حتى مصبه في الفرات، ثم نهر الفرات حتى البوكمال جنوبا وهو الخط المعروف بخط البوكمال إلى تدمر ثم إلى الحدود الغربية الشمالية. وهذا الحد موضوع غير طبيعي. ولعل هذا القطر لن يعدم حده الطبيعي من الشمال فإن الصخور التي تفصل الشام من الشمال عن آسيا الصغرى ليس لها مثيل في التخوم الطبيعية كما قال نابليون. وجعل الجغرافي اليزه ركلو حد الشام من جبال أمانوس اللكام إلى طورسينا وقال: إن طورسينا وإن ضم سياسيا إلى مصر فهو جزء من أجزاء الشام. وقال بوليه: إن حد سورية شمالا آسيا الصغرى. وقال بورتير: إن سورية أي سورية الرومانيين يحدها شمالا آسيا الصغرى. وقال بيدكر: إن حد الشام من طوروس إلى مصر. وبذلك رأينا أن الشام يحيط به من الجنوب رمال من الجفار وتيه بني إسرائيل وجزء من البحر الأحمر فالبادية. ومن الشمال جبال شامخة صعبة المسالك وهي جبل أمانوس أحد سلاسل جبال طوروس. ومن الشرق الفرات ومن الغرب البحر. أي رمال وجبال ونهر وبحر.

مساحة الشام وصورته

قدر القدماء طول الشام من العريش إلى الفرات بمسيرة نحو شهر وعرضه من

جبلي طي أجيا وسلمى من القبلة إلى بحر الروم نحو عشرين يوما، وجبلا أجيا وسلمى جنوب الشراة وراء البتراء المعروفة عند الرومان باسم بروفنسيا أرابيا أو أرابيا بترا. وقال شيخ الربوة: حد الشام طولاً من ملطية إلى العريش ومسافته سبعة وعشرون يوماً، وعرضه الأعرض من منبج إلى طرسوس. وعدّ ياقوت من الشام الثغور وهي المصيصة وطرسوس وأذنة وجميع العواصم من مرعش والحدث وغير ذلك.

وقال علماء الإفرنج: إن معدل طول الشام نحو ألف كيلو متر وعرضه نحو مائة وخمسين كيلو مترا. ومساحته ١٨٣ ألف كيلو متر مربع وقال بعضهم: إن مساحته السطحية نحو ٢٨٠ ألف كيلو متر، وأبلغه غيرهم إلى ثلاثمائة ألف وأنزله آخر إلى مائة وتسعة وخمسين ألف كيلو متر، وبالغ في تصغيره بعضهم فقال: إن مساحته مائة ألف كيلو متر مربع فقط، ومنهم من قال: مائة وخمسة عشر. وقال آخر: إن طوله ينيف على أربعمائة ميل وعرضه يختلف كثيرا ومعدله نحو مائة وعشرين ميلا. ومساحة الشام خمسون ألف ميل مربع. وذكر آخر أن طول الشام المتوسط من الشمال إلى الجنوب نحو سبعمائة كيلو متر وعرضه من الغرب إلى الشرق نحو أربعمائة وخمسين كيلو مترا. وأكد بعضهم أن طوله من طوروس إلى طورسينا لا يقل عن ألف ومائة كيلو متر، وقال غير واحد: إنه لا يقل عن ٨٠٠ إلى ٩٠٠ هذا إذا تركت منه البادية ولم يحسب غير الأراضي القابلة للزراع. وقدرت الأرض القابلة للزراعة في الشام بمائة وخمسين ألف كيلو متر مربع. والاختلاف في حد الشام ومساحته بين علماء الجغرافية المحدثين أكثر مما بين علماء تقويم البلدان من العرب الأقدمين. وقد شبه بعضهم الشام في هيئته الطبيعة بشكل مستطيل طوله ثمانية أضعاف عرضه. وشبهه آخر بأنه شكل مربع الأضلاع. مستطيل كثيرا.

مدخل الفاتحين إلى الشام

جاء الفاتحون الشام بحرا وبرا بل جاءوها من جهاتها الأربع فجاءها الفراعنة من البحر والبر، والبابليون والفرس من الشرق والشمال، والإسكندر والصلبيون والعثمانيون من الشمال، وغازان وهولاكو وتيمورلنك من الشرق، والعرب الفاتحون من الشرق والجنوب، ونابوليون من الجنوب ومن الغرب بحرا، وإبراهيم باشا المصري برا وبحرا أي من الغرب والجنوب الغربي، وجيوش الحلفاء من الإنكليز

والفرنسيين والعرب من الجنوب والغرب. وكانت على اعتزالها وراء حدودها الطبيعية مطمح الطامحين، وطعمة الطامعين، لم تدفع عنها حصونها التي فصلتها عن الحجاز بصحار مقفرة، وحرار معطشة، وعن العراق بنهر عظيم وبادية قاحلة، وعن آسيا الصغرى بجبال عالية، وعن مصر وعن برّ إفريقيا برمال محرقة. وداست تربتها الجميلة سنابك خيل الفاتحين، وعشت بجميل محياها سهام النوائب، وأوردتها موارد العذاب الهون، ولم تأمن عادية العادين، على ما فيها من الجبال الشم، ومضايق تضل فيها العصم.

مدن الشام وقراء

في الشام مدن كثيرة منها ما دثر وانحط بعد أن كان له شأن مهم في الأزمان الغابرة، مثل قيسارية والمعرة وأنطاكية وقنسرين وأفامية وجرش والبتراء وبصرى وصيدا وصور وتدمر وبعلبك وجبيل وسبسطية وأم قيس وصرخد والسويداء وشهبة وعرقا وعمان وبانياس في الحولة وعسقلان، ومنها ما ثبت على صدمات الأيام والليالي وكان له من موقعه وملاءمة الطبيعة له ما أبقى عليه، كأن يكون وسط ريف خصيب، وماء دافق، كدمشق وحمص وحماة وطرابلس. ودمشق أهم مدن الشام وعاصمته في الإسلام وعلى عهد السريان،

وكانت إنطاكية عاصمته على عهد الروم والرومان. وتجيء بالعظم بعد دمشق مدينة حلب ثم بيروت ثم القدس وسكان دمشق نحو أربعمائة ألف، ومثلهم سكان حلب، وبيروت نحو ثلاثمائة ألف، والقدس أقل من ذلك. وفي الشام عدة مدن تزيد على خمسين ألف نسمة، مثل يافا وحيفا وحماة وحمص ودير الزور، وفيها عدة مدن تختلف بين العشرين والأربعين ألف نسمة، مثل اللاذقية. غزة. صفا. زحلة. صيدا. إدلب.

إنطاكية. وعشرات من القرى هي أشبه بمدن أو مدن أشبه بقرى تكون نفوسها بين العشرة آلاف والعشرين ألفا مثل صيدا والخليل والرملة واللد والناصرية وطبرية والدامور وبعلبك وحاصبيا وراشيا والصلت ودومة وداريا وجوبر وبيروت ودير عطية وحارم وإدلب وسلمية والشويفات وبشري وإهدن والبترون وغيرها. ولا تقل قرى الشام عن ثمانية آلاف قرية ومزرعة وبليدة ومدينة وسكانها نحو سبعة ملايين يدخل فيهم العرب الرحالة ويقدرون بخمسمائة إلى ستمائة ألف.

طبيعة الشام

قطر تأخذ فيه الفصول الأربعة حكمها، وتتم في قيعانه وجباله أسباب النعيم، معتدل الأهوية، متهاطل الأمطار والثلوج، ممرع التربة، فيه الغابات والمعادن، والحمامات المعدنية والأنهار الجارية، والبحيرات النافعة، والأجواء البهجة، والرباع المنبسطة، والمناظر المدهشة، فيه من الجبال الشراة والخليل وعامل وسنير وحرمون ولبنان وكسروان وهوران وجرش وعجلون وعكار واللكام والأقرع والكلبية والأكراد والقدموس وباير والمنيطرة وصنين والكنيسة والباروك ونيحا والريحان وطابور والجرمق والكرمل وبلودان والنبك والصلت ومؤاب وأنطاكية والقصير وريحا. ومن البحيرات العمق والغاب وأفامية والمطخ واليمونة والعتيبة والهيجانة وطبرية والحولة ولوط. ومن السهول سهل حوران والجولان

والجيدور والغوطة والمرج والبقاع والبقية وحمص وأنطاكية واللاذقية وطرابلس والشويفات وصيدا وصور والطنطورة وبيسان وأريحا. ومن المروج مرج ابن عامر وشارون سارون والبلقاء. ومن الأنهار النهر الكبير والأردن واليرموك والعاصي والفرات وقويق والساجور وعفرين والأسود وبردی والبارد وإبراهيم وقاديشا والليطاني والحاصباني والزرقا

والعوجا والأعوج والأولي والزهراني والكلب والموجب والدامور والذهب وقنديل وصنوبر وقرشيش وبرغل والمضيق والسن أو الأبر وحريصون أو مرقة والجوز والكابري ونعمين والمقطع والأزرق والأخضر وأبي زابورة. ومن المناظر البديعة صنين وظهر القضيب وإهدن والبياضة وإصطبل عنتر والصبر والنبى يوشع وقاسيون وحرمون والطور والهامل والكرمل.

خيرات الشام

وفيه تنبت الحبوب والبقول والأشجار على اختلاف أنواعها. ففي جنوبيه وشرقيه النخيل. وفي سواحله الموز والبرتقال. وفي أواسطه السرو والأرز. ويوجد فيه القطن والقنب والكتان والحرير والنيل والدخان وقصب السكر والعسل وشجر الأرز والفوة والسماق والسوس. وتصلح مراعيه لتربية ضروب الماشية. وفي أرضه ومياهه أنواع الطيور والأسماك وتعيش فيه الجمال كما تعيش البغال وتسمن فيه الجواميس كما ينمو الغنم والمعزى. فيه زهاء مائة وثلاثين منجما لم يستثمر منها إلا القير والفوسفات والحمر، على أن فيه الذهب والفضة والنيكل والحديد والفحم الحجري والرصاص والمغرة والنحاس والكروم والزنبق والكبريت والسبذاج والجبس والنفط والإثمد والزاج والمرمر. ومن الحمامات المعدنية حمام طبرية وحمه سمخ وحمه أبي رباح وحمه ضمير وحمه معلولا وحمه إنطاكية والمرقب وزرقاء معين وعجلون ولها كلها من الخواص الصحية ما اشتهر أمره.

هواء الشام وماؤه

ضُقع حوى غرائب الطبيعة تشهد فيه بردا قارسا بل شتاءً مستوفى في قنن جباله وسفوحه في حين تشهد في أغواره كغور بيسان وغور الصافي وطبرية وأريحا ربيعا تاما بل صيفا معتدلا، وبينما تذيب شمس الصفاة واللجاة رأس قاصدهما، إذا به في ربح بليل عليل إذا قصد الجبال وما إليها. فهو مصطاف ومرتبِع ومشتى في أن واحد. وفيه ما لا يكاد يوجد له مثيل في الأرض: بحيرة طبرية تحت سطح البحر على ١٣١٦ قدما وفيها أسماك كثيرة، وبحيرة لوط لا يعيش فيها حيوان فكأن نهر الأردن الذي يجري من بحيرة طبرية وينتهي ببحيرة لوط هو في أوله حياة وفي آخره موت، وهذا لا نظير له في العالم.

ومن عجائب طبيعة الشام أن تنبجس في بعض أصقاعه عيون طيبة ثرة في بقعة ضيقة. ففي الجديدة على مقربة من الحولة عشرات من العيون على هضبة سميت بها البلدة مرج عيون وفي جبل ربحا من عمل حلب عيون لطيفة دارة في الأعالي تكاد تخلو منها السهول المنخفضة المجاورة. ومياه الشام على الجملة طيبة لذيدة.

خصائص الشام

قطر هذه مواهبه قامت فيه في الأزمان الغابرة النصرانية واليهودية. وانبعث من أرجائه مجد الإسلام، فكان مباءة أول دولة عربية إسلامية، ثم أوى إليه الشيع الغريبة من النحل والمذاهب التي لا مثيل لها في غيره، كالدرزية والإسماعيلية والنصيرية والسامرة بل معظم المذاهب الإسلامية والنصرانية والإسرائيلية وتبلغ سبعة عشر مذهباً وجملة من العناصر القوية ذات المدنية التي استحالت عربياً.

رأى الشام طلعة موسى وعيسى من النبيين، والإسكندر وابن الخطاب
وخالد بن الوليد وموسى بن نصير ونور الدين وصلاح الدين وسليم
وإبراهيم من الفاتحين.

وعمر بن عبد العزيز والمأمون وابن تيمية من المجددين. وبختنصر
وهولاكو وجنكيز وغازان وتيمور من المخربين، وقل في الممالك كما
قال كورتيوس ما اندمج فيه كثير من التواريخ في بقعة ضيقة كهذه.

الشام مهوى أفئدة الشعوب النصرانية واليهودية، ومجاز حجاج
المسلمين إلى الأماكن الطاهرة القدسية والحجازية، بل نقطة الاتصال
القريبة بين آسيا وأفريقيا وآسيا وأوروبا، بل بين القارات الثلاث القديمة
آسيا وأوروبا وإفريقية، وأجمل مصيف ومشتى للأقطار الحارة المجاورة
كالحجاز والعراق ومصر. والشام في أواسط الأقطار التي يتكلم أهلها
بالعربية وهو بلد الخيال والشعر، والهمم العليا واستقلال الفكر، وأرضه
أبدا باسم طرة كسمائه:

ولهو نفوس دائم و سرورها

مصحة أبدان ونزهة أعين

ففي كل أرض روضة وغديرها

مقدسة جاد الربيع بلادها